إريك بويسانس

اللغة والفكر

1) مقدمة

لقد تبين من دراسة الحقيقة أن الكلام هو الوسيلة المثلى لكشف المعرفة، وأنه يستخدم لاقامة الحقيقة، أن هذه الملاحظة تنضاف إلى مالاحظه اللغويون بخصوص الطفل الذي يتعلم الكلام : ان الطفل من فرط سماعه لاستخدام نفس الأصوات في نفس الأوضاع الاجتماعية يربط في نفسه بين معرفة الاصوات والاوضاع الاجتماعية. وفي اليوم الذي يستعمل فيه الطفل كلمة (طاولة) مثلا بكل دقة، حينئذ سنكون على يقين بأنه عرف الأثاث والكلمة، وكذلك اندماج هاتين المعرفتين. ان سيرورة التعلم هالة تؤدي إلى الحقيقة : أي لكي يتمكن الطفل من اكتساب كلمة طاولة يلزم أن تبرز معرفته نقطة التقاء مع معرفة الاكبر منه سنا، وبهذه المعرفة المشتركة فقط يمكن ان ترتبط الكلمة.

ان بطء الطفل في تعلم بعض الكلمات يأتي بالضبط من الصعوبة التي يشعر بها في ايجاد علاقة بين معارفه ومعارف من يحيطون به، وعلى سبيل المثال فكلمتا (البارحة) وغدا لاتتعلقان بمعطى حسي : اي على الطفل ان يقوم ببرهان معقد شيئا ما لكي يجرد العلاقة الزمنية لتجاربه. وكذلك الأمر بالنسبة للضمائر المنفصلة « أنا وأنت »؛ فان الطفل يكتسب هاتين الكلمتين في فترة متأخرة جدا لانهما لا تشيران الى أشخاص، ولكن تشيران الى الدور الذي يلعبه الشخصان في عملية التو إصل : ان الشخص المشار إليه ب « أنا » عندما ينطق بها انسان ما يشار إليه ب « أنت » على لسان محاوره، والعكس صحيح ؛ فما دام الطفل لا يميز العلاقة المتغيرة بين المستمع والمتكلم فإنه غير قادر على استخدام ضميري المتكلم والمخاطب بدقة.

ان الأمثلة أعلاه تتعلق بمعرفة الوقائع الموضوعية، ولكن اللغة يمكنها ان تعبر عن معرفة الوقائع الذاتية. عندما يقول محب « أحبك » فانه يعبر عن معرفته بحبه، وبإيجاز يقال إن اللغة تعبر عن العواطف، ولكن نريد القول بأنها تعبر عن المعرفة بالعواطف. فجملة أمرية مثل « تعال » **تصف** ارادتنا، وجملة استفهامية مثل « أين هو أخوك ؟ » **تصف** رغبتنا في

□ أشرف على الترجمة وراجعها الأستاذ محمد سبيلا في نطاق بحث جامعي بكلية الآداب بفاس، أنجزه حميش محمد توفيق.

الحصول على أخبار، ولكي نلجأ الى هذه الجمل ينبغي ان نعرف ارادتنا ورغبتنا. حينما نلجأ إلى نغمة ساخرة لنقول « هذا نظيف! » فاننا نستخدم هذه النغمة لكي نعرف إحساسنا، اننا نعرف احساسنا. عندما نحكي حلما فاننا نعبر عن معرفتنا بهذا الحلم، وعندما يحكي كاتب رومانسي حياة خيالية، فانه حينئذ يصف لنا المعرفة التي لديه عن هذا العالم الذي خلقه في وجدانه. ان اللغة تعبر في جميع هذه الحالات عن المعرفة.

وهذا لا يدعونا الى القول بأن اللغة لا يمكنها أن تكشف الا المعرفة. عندما يفحص دارس الخطوط graphologue كتابة ما، فإنه يقيم علاقة بين شكل الحروف وشخصية الفرد الذي رسمها. ان دلالة الكتابة هاته شيء آخر غير الدلالة المحصل عليها من قراءتنا لكتابة ما. ان الدلالة الخطية لا تهم اللغوي لانها لا تستخدم لتحقيق التو اصل : إنها توجد بدون علم الفرد الذي يتواصل. وكذلك توجد في نطق الفرد كمية من العناصر غير اللغوية التي تبرز الجنس، والعمر، والاصل الاجتماعي، والحالة الوجدانية....الخ ؛ لا يستعملها الفرد لتحقيق التواصل ؛ وكذلك فان دلالتها لا تتعلق باللسنيات. ان هذه الدراسة ستحصر نفسها في حدود الوقائع اللسنية الخالصة، أي في التواصل الاجتماعي الذي يؤدي الى تناسق المعارف، أي في كلمة واحدة، الحقيقة.

سيكون من الأهمية بمكان مع ذلك أن نأخذ الفكر بعين الاعتبار ؛ لان دور المعرفة لا يفهم بدون افتراض قدرة، أي ملكة تستخدم وتنظم المعارف وتربطها بالكلمات. لنفترض أنه من الصعب جداً معرفة مِمَّ تتكون هذه المَلَكَة ولا كيف تعمل، فان كلمة فكر ستؤخذ هنا في معناها الواسع : أنها ستشير الى كل فعالية نفسية، سواء كانت شعورية أم لا، وسواء كانت عقلية أم لا.

وسيكون من الضروري كذلك أن نتحدث عن الأفكار ؛ لان معارفنا الحقيقية تندرج فيها عناصر لا تمت إلى المعرفة بصلة : منها مدلولات شكلت ابتداء من معارف، مثل الجاذبية الكونية، ومنها مدلولات اخرى أخذت من أفراد آخرين مثل تلك التي أتتنا من القطب المتجمد الجنوبي. ان كلمة فكرة ستستخدم اذن لتشير الى كل ماهو موضوع للفكر، سواء كان هذا الموضوع من المعرفة أم لا، وسواء كان بسيطا أم مركبا.

وعلى الصعيد اللسني من الأفيد أن نتذكر التمييز بين اللغة والكلام : فالكلام فعالية ؛ والعلامة اللسنية هي أجزاء هذه الفعالية ؛ لكن النسق الذي تقيمه هذه العلامات يسمى اللغة.

ومن التقليدي أن نتحدث عن مشكلة العلاقات بين اللغة والفكر، انها في الواقع علاقات بين الفكر والأفكار من جهة، واللغة والكلام من جهة أخرى.

2) الاطروحات الموجودة حاليا.

تساءل بعض المفكرين ، منذ أمد بعيد، عما إذا كانت اللغة تعبر بأمان عن الفكر؛ وهذا سؤال مهم بالنظر الى الدور الذي تلعبه اللغة في العلم. إن مجرد التساؤل عن قيمة اللغة يخون ذلك الاحساس الغامض بعدم الارتباط بين اللغة والفكر ؛ وهذا الاحساس الغامض قد أكده

النحاة الذين أشاروا دوما إلى عيوب اللغات : يوجد عدد قليل من القواعد بدون استثناء، والذي لا يزال تابثا الى الان هو أن رجال العلم قد بحثوا عن علاج لمظاهر عدم انتظام اللغات ونقائصها ؛ فالرياضيون ابتدعوا نسقا من العلامات البيانية كي يوفروا لأنفسهم لغة صارمة، كل علامة تمثل دائما نفس الفكرة، وكل فكرة تمثلها دوما نفس العلامة. وقد حاول مفكرون آخرون أمثال : ديكارت وليبنتز أن يخلقو لغة عالمية : أي نسقا متماسكا من العلامات للتعبير عن أي فكرة، وسواء نجحت هذه المحاولات أم لا فانها تظهر أن النفوس المهمومة بالدقة والمنطق شعرت دوما بوجود نقص في اللغات وهذا الحدث بدوره يبين أن الكلام والفكر لا يتطابقان : أن نفكر ليس معناه أن نتحدث مع أنفسنا.

ليس العلماء وحدهم هم الذين أحسوا بالحاجة الى التخلي عن اللغة لتحقيق التواصل : سيكون من الصعب جدا، بل من المستحيل أن نصف وجه انسان باستخدام الكلام فقط ؛ عندما ترسل أوصاف مجرم ما، فإنه يضاف الى ذلك صورته وبصمات أصابعه : أي تكمل الكلمات باسلوب غير لغوي. ومن ناحية أخرى فانه لو اراد رسام أن يخرج نسخا لاحدى لوحاته، فانه لا يفكر في أن يهتف الى النسّاخ ويصف له اللوحة بكلمات حتى ينسخها هذا بدون رؤيتها : ان المعرفة الحقيقية للوحة لا يمكن تبليغها. ان لغاتنا لا تمتلك جميع الكلمات اللازمة لكي تبلغ جمع معارفنا ؛ من الواضح إذن أن ميدان معارفنا لا يتطابق مع ميدان كلماتنا.

وأخيرا عندما نرى بعض الحيوانات تحل بعض المشكلات المعقدة تحت مراقبة علماء النفس مظهرة بذلك ذكاءها، فاننا سنكون مجبرين على القبول بان الفكر يمكن أن يمارس بدون كلام. إن الفكر الحيواني لم يتكون من احساسات، أو من صور ملموسة، أو ردود فعل طبيعية أو مكتسبة ؛ ان الحيوانات تمارس التجريد ولو أنها لا تذهب في التجريد بعيدا أكثر منا. عندما يقابل مفكر ما الانسان بالحيوان، فانه يختار دوما ذلك الانسان من بين المفكرين، لانه يوجد بعض الناس الذين لا يفكرون بتاتا أفضل من الحيوانات، ولو أنهم يتكلمون : إننا لسنا كلنا أذكياء.

وعلى الرغم من كل ذلك فانه وجد في كل حين بعض المفكرين الذين يثبتون وحدة اللغة والفكر أو تطابقهما. إن كلمة لوغوس logos تشير إلى الاثنين معا. وفي أوائل القرن التاسع عشر، عندما أصبحت دراسة اللغات علما أعلن هومبولت Humboldt بصراحة وحدة اللغة والعقلية الوطنية ؛ وما يزال أنصار لهذا الرأي في البلدان الناطقة بالألمانية.

ويدخل ف. دوسوسور F. de Saussure في نفس الاتجاه إذ يقول : « سيكولوجيًا، وبغض النظر عن التعبير بالكلمات، فان فكرنا ليس الا كتلة عديمة الشكل وغير متميزة. وعلى هذا فقد اتفق الفلاسفة واللغويون على الاعتراف بأنه بدون مساعدة العلامات، سنكون غير قادرين على التمييز بين فكرتين بشكل واضح ودائم. واذا أخذنا الفكر وحده، فإنه سيكون عبارة عن شيء غائم حيث لا يتحدد شيء بالضرورة. انه لا توجد أفكار قائمة بصورة قبلية، ولم يتميز شيء قبل ظهور اللغة » (Cours de linguistique, 1916)*.

وأضاف قائلا بعد ذلك :

« ان اللغة تشبه وجهي ورقة، الفكر وجهها واللفظ ظهرها ولا يمكن أن نقطع الوجه دون أن نقطع الظهر في نفس الوقت ؛ وكذلك الأمر في اللغة، لا يمكن أن نعزل اللفظ عن الفكرة ولا الفكرة عن اللفظ.» (ص 163)

واذا قبلنا مع فون وارتبور Von Wartburg بأن اللغة تشرط الفكر، فان مشكل أصل اللغة سيكون مشكلا متعذر الحل ؛ لأن كل اختراع لغوي هو نتيجة لعمل الفكر، شعوريا أم لا. ان الترديد الصوتي حدث غريزي، أي أنه مظهر لقانون طبيعي، ولكن استخدامه كوسيلة لتحقيق التواصل هو مبادرة من الفكر الانساني ؛ ان الفكر المبدع ينبغي أن يوجد قبل ظهور الكلام. خارج هذه الاطروحة التطورية، فانه لا يوجد مكان إلا لأطروحة أخرى ؛ وهي ابداع الله لكائن مفكر ومتكلم ؛ ولكن هذه الاطروحة في تناقض مع واقع عدم وراثة الطفل للغة أبويه : ان الطفل لا يتكلم الا ما سمع، ولا يتكلم الا اللغة التي سمع كلامها.

هذه الدراسة لا تدعي أنها ستتطرق لجميع المشاكل المرتبطة بالعلاقات بين الكلام والفكر. انها ستبتديء بدحض البرهانين الأساسيين لمن يؤمنون بالوحدة بين الكلام والفكر أو الارتباط الكامل بينهما ؛ وستعني في جزئها التأسيسي بأربعة أسئلة :

1) هل ترتبط بنية الجملة ببنية موازية للفكرة المعبَّر عنها ؟
2) هل تفرض اللغة حدودا على التواصل ؟
3) هل تتأثر اللغة بالفكر ؟
4) هل يتأثر الفكر باللغة ؟

وسوف لا يكون هناك سؤال عاطفي ؛ السبب في ذلك أننا لا نعرف كيف نحدده ولا كيف ندرسه. ومن المستحسن أن نعتبر العاطفة كموضوع للمعرفة فقط. إذا عرفنا عواطفنا يمكننا أن نتحدث عنها كأشياء أخرى.

3) اعادة تأويل واقعتين.

إن الذين يؤمنون بالارتباط التام بين الكلام والفكر يكتفون على العموم بتأكيد رأيهم دون الاستناد الى وقائع التجربة، ومع ذلك فهناك واقعتان مزعومتان من طرفهم.

لقد لوحظ بأن هذا الانسان الذي يتكلم لُغَةً مّا يفكر تفكيرا مغايرا لانسان آخر يتكلم لغة أخرى. وقد أكد هومبولت أن اختلاف الفكر نتج عن اختلاف اللغة، إلا أن هذا التفسير لا يفرض نفسه : يمكننا أن ندعي كذلك بأن اختلاف الفكر، أو ان هذين الاختلافين ناتجان عن شيء ثالث. (إن هذا المشكل لا يمكن الحسم فيه إلا بعد مراجعة الوقائع المذكورة في الفقرة السادسة).

ينبغي، ابتداء من الان، أن نلاحظ أن أطروحة هومبولت تقتضي أن كل الذين يتكلمون نفس اللغة يفكرون بطريقة واحدة ؛ لكن لا وجود لذلك : انه غالبا ما تظهر خلافات بين أفراد يتكلمون لغة واحدة. وأكثر من ذلك : فانه يحدث أن نفس الجملة يمكن أن تعبر عن أفكار متباينة ؛ ولنأخذ مثلا، هذه الجملة « طلعت الشمس » ؛ فانه لو لم يكن لدينا أي

مفهوم عن علم الفلك، لأخذنا هذه الجملة في معناها الحرفي : أي نعتقد بأن الشمس تتحرك نحو الأفق، ولكن الذين تلقوا تعليما بالمدرسة يعلمون بأن هذه الجملة لا تتعلق بحركة الشمس وانما تتعلق بحركة الارض ؛ ويستمرون في القول « طلعت الشمس »، الا أن هذا يستدعي في عقولهم أفكارا مختلفة عن أفكار الجاهلين الذين يتكلمون معهم نفس اللغة.

وقد لاحظ ج. ريل G. Ryle في كتابه (محاولات في المنطق واللغة 1951) بأن الجملة التالية : «ان اسميث ليس هو الانسان الوحيد الذي تسلق جبل مونت بلان» يمكن أن تعبر عن فكرتين : 1) إن إنساناً واحدا فقط تسلق جبل مونت بلان، ليس هو اسميث. 2) إن اسميث صعد جبل مونت بلان، إلا أنه ليس الوحيد الذي فعل ذلك. ان فردا واحدا يمكن أن يستخدم هاته الجملة يوما بالمعنى الأول، ويوما آخر بالمعنى الثاني، مما يدل على أن الفكرة لا تتطابق مع العبارة اللغوية.

علاوة على ذلك لا ينبغي أن نبحث بعيدا : ان جميع حالات تعدد المعاني بالنسبة لكلمة واحدة Polysémie تثبت نفس الشيء. يمكن أن نقول « كم يساوي هذا الثور ؟» بحضور حيوان حي أو بحضور قطعة لحم : ان كل فرنسي يعرف جيدا بأن كلمة ثور لها أكثر من معنى، وهذا يعني أن كلمة واحدة ما لا ترتبط دوما بنفس الفكرة.

الخلاصة، أنه سيكون من الخطأ القول بأن نفس الأسلوب اللغوي يستدعي ضرورة نفس الفكرة في عقل كل من يستخدمه : انه لا يمكننا اذن أن نقول بأن اللغة تشرط الفكر. وقد لاحظ جون بولهان Jean Paulhan (Les fleures de tarbes 1941) بأن من يدعون أن اللغة تشرط الفكر لا يضعون أنفسهم كأمثلة : انهم يتكلمون دوما عن أفراد آخرين. عندما يدعي انسان ما أن فكر انسان آخر مشروط بلغته، فان ذلك يتضمن أن فكره هو ليس كذلك : والا فانه لم يلاحظ ذلك.

إن أنصار المطابقة بين الكلام والفكر يسوقون واقعة أخرى : وهي ما يوصف بقولهم أنه لكي نتكلم لغة مّا، فيلزم أن نفكر بهذه اللغة. وهذا وصف سيء لواقع تجربة عامة : لكي يتكلم أي فرد لغة أجنبية بسهولة، فإنه لا ينبغي أن يصوغ فكرته أولا في لغته الأم ثم يترجم بعد ذلك هذه الصياغة الى اللغة الأجنبية، بل يلزم أن يمر مباشرة من الفكرة الى صياغتها باللغة الأجنبية. إن الفرد المزدوج اللغة هو الذي يختار، حين تكون لديه فكرة يريد التعبير عنها، بين صيغتين لغويتين : إحدى هاتين الصيغتين في اللغة الأم، والأخرى في اللغة الأجنبية، وهذا لا يدل فقط على أن الفكرة المعبَّر عنها متميزة عن الصيغ التي عبرت عنها، بل يدل كذلك على أن الفعالية النفسية التي اختارت بين العبارات، أي الفكر، ليست متأثرة قط بهذه الصيغ. إننا لا نفكر إذن بأية لغة من حيث أننا قادرون على المقارنة بين صيغتين من لغتين مختلفتين، إذا ما فكرنا بلغتنا الأم، فسيكون من المستحيل علينا أن نفكر بلغة أخرى.

حقا، قد يحدث أن نتحدث ذهنيا، إن هذه اللغة الباطنية شيء واقع. ولكن يمكننا أن نتحدث ذهنيا بأية لغة تعلمناها، ويمكننا أن نقارن بين العبارات اللغوية لمختلف هذه اللغات الباطنية، اذن فالفكر الذي يقارن بينهما يلزم أن يكون مستقلا عن هاته اللغات، والفكرة التيْ يقابلها الفكر بالعبارات هي أيضا متميزة عن هاته العبارات.

إن من درسوا العلاقات بين اللغة والفكر خلطوا أحيانا بين اللغة الباطنية والفكر. هاته اللغة الباطنية قد درست من طرف علماء النفس، وهي لا تختلف بتاتا عن اللغة الشفوية المستخدمة في التواصل، اذن فليست هناك فائدة كبرى في المقارنة بين هاتين الصورتين للغة. ومن الأفضل أن نبعد نهائيا اللغة الباطنية لنبتدىء، وندرس فقط العلاقات بين الفكر والكلام، واذا ما عرفت هذه العلاقات جيدا، فسيكون من الممكن الرجوع الى اللغة الباطنية لدراسة الدور الملحوظ الذي يمكن أن تلعبه في تنظيم أفكارنا.

4) المنهـــج :

إن المعرفة لا تظهر لنا، كما لاحظنا ذلك من قبل، الا من خلال الكلمات، وهذا أمر بديهي بالنسبة لكل فكرة. ويمكننا أن نتشكك في كون تصورنا لأفكارنا ولعمل الفكر مشروطاً كلية باللغة والكلام، وفي أنه يتعين على كل مقارنة ان تستخلص الاتفاق الشامل بين الفكر واللغة. وقد أشار بلومفيلد L. Bloomfield إلى كل هذا، وسمح لنفسه بأن يرفض ما أسماه بالنزعة الذهنية Le mentalisme واقترح دراسة ميكانيكية للغة مبعدا كل إشارة للفكر :

«مما يؤخذ على مبادىء «بول» انها تركز كثيرا على التأويلات السيكولوجية فهو يرافق تصريحاته المتعلقة باللغة بشروح حول العمليات العقلية التي يخضع لها المتكلمون ضمنيا. والحقيقة الوحيدة لهاته العمليات العقلية أنها عمليات لسنية، وأنها لا تضيف شيئا للمحادثة بقدر ما تجعلها غامضة. توجد مع ذلك وسيلة بسيطة جدا ـــ وهي وسيلة استخدمت دائما ـــ كي نحصل من أفكارنا ومن فكرنا على معلومات لا تكون مشروطة بالكلام أو باللغة. فمثلا عندما نتحدث عن الحركة التي تظهر بها الشمس، يمكننا أن نقول إما «تطلع الشمس» واما «تدور الأرض» وكل شخص متعلم يعْرف بأن هاتين الجملتين، ولو أنهما لا تتعادلان، فإنهما تشيران إلى نفس الواقعة المعروفة، وعندما نتحدث عن إصدار جديد لطوابع بريدية يمكننا أن نقول إما «تغير لون الطوابع» وإما «أن لون الطوابع الجديدة يختلف عن القديمة»، وفي هاته المرة فإن الجملتين متعادلتان تماما. ولكي نقيم هذا التعادل يجب ألا يكون فكرنا مشروطا بالعبارات اللغوية، ينبغي أن تكون الفكرة متميزة عن الصيغ اننا نجهل كيف يعمل فكرنا، الا أن هذا لا يهم، ان الحدث المهم، هو أن يصل الفكر الى الفكرة الخالصة ان اللغة الماورائية métalangage التي يتحدث عنها في أمريكا بالخصوص ليست شيئا آخر إلا تطبيقا لهذا المنهج، وتقوم الاهتمامات اللغوية دوما على تفسير بعض الجمل بجمل أخرى وهذا يعني ربط جمل مختلفة بفكرة واحدة وفي كل مرة يعطي فيها القاموس معنى لكلمة ما، فانه يلجأ الى الموازنة بين عبارتين مختلفتين، وهذا ما يفترض فكرا قادرا على مقابلة العبارات بالفكرة.

إن النزعة الذهنية التي يتعين رفضها هي تلك التي لا تتحمل أي اختبار، وبالعكس، فمن المشروع أن نصادر على واقعة سيكولوجية لتفسير واقعة لغوية اذا كان بالامكان اختبار هذه الواقعة السيكولوجية بواسطة واقعة لغوية أخرى أو بواسطة واقعة غير لغوية.

5) بنية الجملـة :

إن الهدف الأساسي للنحو هو دراسة بنية الجملة، أي الكيفية التي تنتظم بها العلامات داخل الجملة. ومن المعلوم أن أغلب الناس ينفرون من الاحتكام الى النحو، لكل واحد قاموسه الذي يستعمله بسهولة، ولكن عدد الذين يعرفون النحو ويرجعون إليه قليل جدا، ان معظم الناس يجدون النحو منفرا، وذلك لسبب وجيه وهو : ان قواعد النحو لا ترتكز على أساس عقلي.

إننا ندرك ذلك منذ الخطوة الأولى، أي بمجرد أن نعتبر أن جملة ما منتظمة داخليا articulée أي مركبة من علامات. من قبل كانوا يفككون الجملة الى كلمات : وفي 1913 كان Meillet ما يزال يعتبر أن وحدة اللغة المنتظمة هي الكلمة، وعرف هذه الوحدة بأنها ارتباط معنى لمجموعة من الأصوات وباستعمال النحو. الا أنه لم يقل لنا كيف تقوم وحدة المعنى، وبالنسبة إليه فان المعنى كان عبارة عن فكرة، وترك لعلماء النفس صلاحية تحديد ما يشكل وحدة الفكرة، وللأسف فان علماء النفس لم يكونوا قادرين على ذلك. ومن ناحية أخرى، فقد لاحظ فندريس Vendryes في نفس الحقبة بأنه توجد كلمات خالية من المعنى، إذن فلا يمكن أن نأخذ وحدة المعنى كمعيار لوحدة الكلمة. ان مفصلة الجملة الى كلمات لا يناظر مفصلة الأفكار بشكل مواز.

وفي الوقت الحاضر فاننا لا نعتبر الكلمة كوحدة للغة المنتظمة، نرى هذه الوحدة في ما سماه دوسوسور العلامة، وفي ما سماه آخرون مورفيم، أو شيئا آخر غير هذا. انه لا يلزم أن يكون لكل علامة معنى، وانما يجب أن تكون لها وظيفة : لنهتم على سبيل المثال بالعبارتين التاليتين : «هو نظر» (Il a regardé) «وهو منظور اليه» (Il est regadé) إن لهما معنى مختلفا، ومن المستحيل أن نسند معنى خاصا للعلامتين (a) و (est) معزولين، إنهما خاليان من المعنى، ولو أنهما تقومان بوظيفة هامة عند تركيبهما مع إسم المفعول.

إن العلامة هي العنصر الأصغر الذي يسمح بعمليتين، بالنسبة للنطق والدلالة معا، الأولى أنها تسمح بالمقابلة بين جملتين في حين أنهما متشابهتان، والثانية أنها تسمح بالمقارنة بين جملتين في حين أنهما غير متشابهتين. ان هذا التحديد لا يعتمد إلا على وقائع لغوية، إن الدلالة التي هي موضوع اهتمامنا هي دلالة الجملة بأكملها : لا يقوم انتظام الجملة على أساس انتظام افتراضي للفكرة المعبَّر عنها وبتعبير آخر نقول : إن تمفصل الجملة قوانينه الخاصة التي لا ترتبط بالفكر. حقا، يحدث في كثير من الأحيان أن نجد أن بعض العلامات تطابق بدقة أشياء أو كائنات معروفة، ونستعمل هذه المطابقة عندما نلصق بطائق على أشياء معروضة، أو عندما نكتب كلمة «مدخل» أو «مخرج» فوق باب ما، إلا أن ذلك لا يرتبط بقاعدة، لنأخذ مثلا العبارات التالية «تمثال فارس» إنها تحتوي على كلمتين، وبالمقابل، فان العبارة «تمثال إنسان على فرس» تحتوي على أربع كلمات ولو أنها تشير الى نفس الشيء بالضبط : وسيكون من المستحيل أن نقول كم هي عناصر المعرفة المذكورة في هاتين العبارتين. ومن ناحية أخرى فإن الكلمات البسيطة تدل دوماً على أفكار معقدة. فكلمة (أب) تعني : «كائنا إنسانيا بالتعاون مع امرأة أو جد كائنا إنسانيا آخر واحدا على الأقل»، وكلمة واحد

تعني «الذي لا يشترك مع آخرين». انه لا يوجد إذن تطابق دقيق بين وحدة الكلمات ووحدة الأفكار، ان بنية الجملة لا تناظر بنية الأفكار المعبر عنها بشكل مواز.

إن نظام العلامات أو الكلمات في ارتباط وثيق مع مسألة تنظيم الجمل. ففي الفرنسية نقول الحديقة العمومية Le parc public وفي الانجليزية نقول العكس the public parc، وسيكون من المستحيل أن نقرر معرفيا أو منطقيا ما اذا كان من اللازم أن يسبق النعت المنعوت أو يلحق به، ان كل لغة تحل هذا المشكل حسب تقاليدها، لا على حسب نظام خيالي للأفكار.

وحتى مبدأ تتابع الكلمات فانه تتابع لغوي محض : ان هذا النظام يوجد فقط لأن أعضاءنا الصوتية لا تسمح لنا بنطق كلمتين في آن واحد، ذلك لأن الكلمة السابقة ينبغي أن تنتهي حتى نتمكن من نطق الكلمة اللاحقة. ومن المسلم به أن قانونا مثل هذا لا يحكم أفكارنا : لكي نفكر، فمن الضروري أن نربط بين أفكار، وهذا يعني أنها يلزم أن تكون موجودة بصفة متآنية في الذهن. ومع ذلك توجد بعض اللغات التي تسمح بالالتجاء المتواقت لعدة علامات : اذ يمكن للاترابي[1] Trapiste أن يستخدم في احدى حركاته، يديه ورأسه في آن واحد. وفيما يتعلق بمعنى الكلمات فان الأمر يختلف : فلكي نفهم جملة ما، ينبغي عند بلوغنا آخر كلمة فيها، أن نتذكر معنى كل الكلمات السابقة، ومن هنا يظهر لنا عدم ارتباط آخر بين الكلام والفكر. ان هناك أسماء كثيرة لها أكثر من معنى، وعند سماعنا لها ينبغي أن نختار المعنى الذي يناسبها داخل النص الذي وردت فيه، وعلى سبيل المثال لعبارة : «لابد أن تكون الشرطة على علم» معنيان : فيما اذا كانت متبوعة بالعبارة «في أقرب وقت ممكن» أو بالعبارة «مادامت تلفنت لي» في الحالة الأولى، فان فعل (يلزم) يعبر عن ضرورة، وفي الحالة الثانية يعبر عن احتمال. واختيار المعنى الملائم لا يمكن أن يكون في اللحظة التي ترد فيها كلمة (لابد) : بل يكون اختياره عندما تنتهي الجملة، وفي هذه اللحظة يجب على الفكر أن يرجع إلى الوراء نحو كلمة (لابد). نرى اذن بأن النظام الذي تظهر به الأفكار في العقل لا يقابل النظام الذي تظهر به الكلمات في الجملة.

إن العلاقة بين الموضوع والمحمول تنكشف كذلك بدون أساس سيكولوجي وفي الماضي كان ينسب لهذه العلاقة معنى، وكان يعتقد بأنها تتوافق مع علاقة أفكار، فقد ابتدىء بالقول بأن الموضوع يشير الى ما نتكلم عنه وأن المحمول يشير الى ما قلناه عن الموضوع، لكن يكفي أن نأخذ جملة مثل «التقى أخي بأختك» حتى نكتشف بأننا نتحدث عن ثلاثة أشياء : أخي، اختك، لقاؤهما، وينبغي ان نستنتج اذن بأن هذه الجملة تحتوي على ثلاثة موضوعات ولا محمول لها.

ويكتفي عدد كبير من المؤلفين اليوم بإحصاء مختلف المعاني التي يمكن، حسب رأيهم، أن تعبر عن علاقة الفاعل بالفعل الذي يشكل نواة المحمول : يقولون بأن الموضوع هو الذي يَقُومُ بالعمل المعبَّر عنه بالفعل، أو ما يتحمل هذا الفعل، أو الذي يكون في الحالة المعبر عنها بالفعل، أو الذي سيصبح ما عبر عنه الفعل، إلا أن هذا الاحصاء بعيد عن الكمال : انه لم يذكر العاطفة (يحب أمه)، ولا الملكية (له منزل)، ولا المكان (غطى الثلج الأرض)، ولا الزمان

(يتطلب هذا العمل أسبوعا)، لم يقدم لنا أحد القائمة الكاملة للمعاني التي يمكن ان تكون للأفعال، ولنفترض أنه تم التوصل الى ذلك، فسيبقى علينا أن نثبت جميع الحالات المشتركة بين كل الأفعال والحالات التي تخص كل فعل. فلو قلنا بأن كل فعل يعبر عن حدث أو عن عملية، فإننا نستخدم كلمات أحداث أو عمليات، كمصادر، كي نحدد المعنى المشترك بين كل الأفعال، ولو أمكن لمصدر ما Substantif أن يحدد معنى فعل ما، فان هذا المعنى ليس خاصا بالفعل. اذن فليس هناك معنى خاص لعلاقة الفاعل بالفعل، ولا لعلاقة الموضوع بالمحمول بالتالي.

علاوة على ذلك فإن وجود التقابل بين صيغة التعدي وصيغة اللزوم يكفي لأن يهدم كل أمل في إعطاء معنى خاص للعلاقة بين الفاعل والفعل. فقد أشير الى الكائن الذي قام بفعل الأكل في هذه الجملة «أكل القط الفأر» بالفاعل، لكن هذه الجملة «أُكِلَ الفأرُ من طرف القط» لها نفس معنى الجملة السابقة بالضبط، إلا أن الكائن الذي قام بالفعل هنا مشار اليه بنائب الفاعل : اذن فالعلاقة بين الكائن الذي قام بالفعل وبين فعله يمكن أن يعبر عنها بعلاقات تركيبية مختلفة.

بالاضافة إلى ذلك فإنه توجد بعض الحالات التي يشير فيها الفاعل والفعل الى نفس الشيء، ففعل عصف في الجملة «عصف الريح» يدل على الريح، وكذلك الأمر عندما نقول «ان النار تحرق» فإن الإسم : (النار) والفعل : (أحرق) يشيران الى نفس السيرورة الكيميائية. فمادام الفاعل والفعل يشيران الى نفس الشيء، فإنه لا يمكن أن توجد في أذهاننا علاقة بين فكرتين. وأخيرا ينبغي ذكر الفواعل التي لا معنى لها : فضمير الفاعل في الجملة «Il pleut» ليس له أي معنى، ولا يوجد في الجملة إلا لأنه من خصائص اللغة الفرنسية، ان لكل فعل في الصيغة الإشارية l'indicatif فاعلا، فعلاقة الفاعل بالفعل لا تقابل أية علاقة بين أفكار.

والخلاصة، أنه يمكن أن يعبر عن نفس العلاقة بين أفكار بعلاقات تركيبية مختلفة كما أن نفس التركيبية يمكن أن تعبر عن علاقات مختلفة بين أفكار أو أن لا تعبر عن أية فكرة.

إن أقسام الكلام قد أسالت الكثير من المداد لأنه كان يراد القول بأن هذا التصنيف اللغوي يقابل تصنيف الأفكار : فقد زعم بأن الأسماء تستعمل لتدل على الكائنات والأشياء، وأن النعوت تستخدم لتشير الى الصفات، والأفعال لتدل على العمليات، وحروف الجر والظروف لتدل على العلاقات، الخ. لكن يكفي أن نختار علاقة مثل الأسبقية حتى نرى كيف تتقوض هذه النظرية : إننا لا نتوفر فقط على الظرف (أمام) بل يوجد كذلك ظرف الزمان (قبل أن) avant que، ويوجد الفعل (تقدم)، والمصدر (أسبقية)، والنعت (متقدم) والاسم المبني (سابقا)، ويمكن أن ترتبط نفس الفكرة بمختلف أقسام الكلام : انه من الواضح اذن أن تصنيف الكلمات الى أجزاء من الحديث لا يتطابق مع تصنيف الأفكار بالاضافة الى ذلك فان تصنيف الأفكار أمر تم ابتكاره لمواجهة الظرف، إن هذا التصنيف لا يأخذ بعين الاعتبار كل أنواع الأفكار : وعلى سبيل المثال فالمشاعر، والحقوق الاجتماعية، والزمان والمكان كلها محذوفة. ان أقسام الكلام تستند الى معيار تركيبي Syntaxique : فالكلمات ترتب

حسب الوظائف التي يمكن أن تقوم بها في ارتباط مع الكلمات الأخرى، وهذا المعيار لا ينطبق على الأفكار.

إن المقولة النحوية للعدد تكشف كذلك عن عدم اتفاق جلي مع أفكارنا. لدينا في لغاتنا الأوروبية المعاصرة عددان هما : المفرد والجمع، مع أن علماء الرياضيات يعلمون بأن هناك مالا نهاية له من الأعداد ولا جدوى من ارادة الربط بين الأفكار والكلمات بقولنا أن الجمع يمثل وحده جميع الأعداد باستثناء الوحدة ؛ ذلك أنه سيبقى العدد صفر الذي لا يتصور في النحو، وهذا يقود الى إحالات : فنقول «جيش بدون خيول»، و «فارس بدون فرس»، إن عدد الخيول صفر، ولكننا نستخدم المفرد تارة والجمع تارة أخرى ويتجلى لنا غموض آخر عندما نتأمل الحالة التي يمتلك فيها كل شخص نموذجا لشيء واحد، إن الاستعمال في الفرنسية يتردد بين «امتطوا حصانهم» و «امتطوا خيولهم». وهناك بعض الجمل تبعث على الضحك لو قلنا «اتوا مع زوجتهم»، فيمكن أن نفكر بأن لهم جميعا زوجة واحدة، ولكن لو قلنا «اتوا مع زوجاتهم»، فيمكن أن نعتقد بأن لكل واحد منهم زوجات. وللخروج من هذا المشكل نستعمل كلمة (كل واحد) chacun فنقول : «كل واحد أتى مع زوجته»، ولكن مع ذلك نستعمل المفرد مع أن الأمر يتعلق بعدة أشخاص.

لم يكن موضوع حديثنا، حتى الآن، إلا عن المدلولات النحوية، أي عن المدلولات المتعلقة بانتظام الجملة، وقد تمكنا من أن نرى بأن هذه المدلولات لغوية خالصة، وبين الفينة والأخرى كانت ترتبط من قريب أو من بعيد بفكرة ما، إلا أن الغالب هو أن عدم الارتباط بينها واضح. وقد توصلنا الى هذه النتيجة دون أن نقابل بين لغة وأخرى، كما فعل ذلك هامبولت، ويستطيع الانسان اذا ما تأمل قليلا في لغته الأم، أن يدرك تماما التنافر بين الكلام والفكر، وهذه حجة اضافية بأن اللغة لا تشرط الفكر.

إن الأمثلة اللاحقة ستكون من مستوى آخر : إنها تتعلق بالبرهنة على عدم انتظام اللغات، ونقص تناسقها المنطقي. لقد قيل سابقا بأن المبدأ الذي يريد أن يجعل كل علامة تترجم دوما نفس الفكرة ليس له تطبيق صارم في اللغات، يوجد مع ذلك عدد من الحالات التي لا تكون فيها اللغات منطقية مع نفسها، وهذه الحالات قد عرفت منذ أمد بعيد : الجناس homonymie وتعدد معاني كلمة واحدة polysémie واللغة المجازية langage figuré والتعبير المسبوك expression idiomatique والمفعول المطلق complément interne، وكلها مصطلحات تولدت من ملاحظة الانفصال بين اللغة والفكر.

ان حالات تعدد المعاني لكلمة واحدة كثيرة الى حد أننا لا يمكننا تصنيفها : إننا ندرس الصلة بين مختلف معاني نفس الكلمة انطلاقا من المعنى الذي نعتقد أنه الأقدم، ومن هنا تولد مدلول اللغة المجازية. وفي كثير من الحالات يمكننا أن نتبين العلاقة بين الأفكار خلف المجاز : فلو أخذت شبكة صيد حقيقية إسم رعادة[2] torpille فذلك لأن خصائصها تشبه خصائص ذلك السمك، ونرى أن هناك مجازا . ولو قلنا شرب كأسا، فان الفكر حينئذ يربط بين المحتوى والشكل : ولنا في هذه الحالة كناية . وليس على الفكر، بعد ذلك، إلا أن يميز تماما بين رعادة السمك torpille-poisson ورعادة الشبكة torpille-engin بين الكأس

الذي يشرب والكأس الذي يكسر. إن بعض المجازات تظهر لنا غريبة أو غير متحققة : لنأخذ مثلا هذه العبارة «أضاع الحياة»، اننا نستعمل فعل (أضاع) هنا كما لو كانت الحياة موضوعا ممتلكا يمكن أن يضيع ونجده مرة ثانية، أو يباع ويشترى، ان كل الناس يعلمون بأن هذا خطأ. وعندما يتحدث لغوي ما عن اهتراء بعض الكلمات، كما لو كانت الكلمات موضوعات مادية تفقد شيئا فشيئا جوهرها، فإنه في الواقع يشير إلى الضعف التدريجي لاستجابة المستمع لبعض الكلمات. وعلى العموم فان اللغة المجازية صورة من صور التكاسل: فبدل أن نخترع كلمة جديدة نعطي معنى جديدا لكلمة قديمة لكن العقل لا ينخدع : انه لا يخلط بين المعاني.

ويمكن أن نقوم بنفس البرهان بالنسبة للجناس فكلمة police يمكن أن تشير الى عقدة التأمين أو تدل على مجموعة رجال الشرطة، إن هاتين الفكرتين لا تشتركان في شيء، لكن اللغة تعبر عنهما بنفس الكلمة. ويقدم الترادف الحالة المقابلة : فكلمتا sansonne زرزور و étourneau يمكن أن نستعمل احداهما بدل الأخرى، وهاتان الكلمتان لا ترتبطان إلا بفكرة واحدة.

وفي اطار ما يسمى بالتعبير المسبوك، فان معنى مجموعة من الكلمات ليس هو على العموم مجموع معاني الكلمات التي تكونها، فمثلا من المستحيل القول بأن معنى من المعاني العادية لفعل porter يوجد في الجملة (comment vous portez-vous ?) «كيف حالك ؟». ينبغي أن نعلم أنه بتركيب هذا الفعل مع ضمير متصل ومع ظرف الحال فانه يشير الى الحالة الصحية.

ان المفعول المطلق غير منطقي كذلك، فمثلا يمكن أن نقول «مات موتا طبيعيا»، «عاش حياة مغامرات» Il a vécu une vie d'aventure «ابتسم ابتسامة مرة»، إن الفعل في هاته الجمل مصحوب بإسم يشير الى نفس الحدث، وهذه طريقة تسمح لنا في بعض الحالات أن نعطي للفعل مفعولا به لا نعرف كيف نعطيه له بصورة أخرى : من المستحيل القول «مات طبيعيا».

وكذلك توجد كل الحالات التي صنفت تحت زاوية ضخمة من الاستثناء أو من عدم الانتظام، فمثلا في النحو الفرنسي لا يمكن أن يصرف الفعل الذي يأتي بعد الحرف الذي يعبر عن الشرط في المستقبل : نقول (S'il pleut demain, je résterai à la maison) منطقيا يلزم أن يصرف الفعلان في المستقبل.

وأخيرا ينبغي ذكر الحالات التي لم نولها اهتماما في النحو. تسمع أحيانا القول «إن الفرنك هو الفرنك» اذا أخذت هذه الجملة حرفيا فستكون عبارة عن لغو لا يعبر عن شيء، ولكن ما يراد قوله هنا هو أن الفرنك ليس مبلغا حقيرا، وكذلك لو قلنا «إن الفرنك ليس هو الفرنك» فان ذلك يعني بأن القدرة الشرائية للفرنك قد انخفضت. إن المنطق يلزمنا بالتخلي عن هذه الجمل، لكننا نستمر في استعمالها دون أن نخطيء بصددها فكرنا.

ان الكاتب الانجليزي لويس كارول، الذي كان منطقيا، يمزح في كتبه المخصصة للأطفال باطلاعنا بوضوح على السمة غير المنطقية للغة الانجليزية ونجد المقطع التالي في «أليس من

خلال المرآة» : قالت : أليس «إنني لا أرى أحدا في الطريق» فعقب عليها الملك بنبرة متقطعة ــ «أتمنى لو كانت لي مثل هذه العيون حتى لا أرى أحدا ! وعلى هذا البعد كذلك! لماذا، فهذا كل ما أستطيع أن أفعل لأرى أناسا حقيقيين بفضل هذا الضوء».

إن الجانب الهزلي في هذا المقطع ينتج من كون أن القارىء يميز بين المعنى الحرفي (رأى أحدا لا يوجد)، والمعنى الواقعي (لم ير الا ما هو كائن)، ان الفكر يدرك تماما أن العبارة لا تتطابق مع الفكرة.

وقد تم البحث أحيانا في المقارنة بين اللغات لتحديد أيها منطقي أكثر أو أيها أكثر وضوحا. وهذا مشكل زائف : إن أي لغة لا توجد باستقلال عن الناس الذين يتكلمون بها، فليست اللغة هي الواضحة أو المنطقية، بل الانسان الذي يستعملها، وفي كل البلدان هناك أفراد لهم أفكار واضحة يعبرون عنها تعبيرا جيدا، وهناك أفراد لهم أفكار غامضة يعبرون عنها تعبيرا رديئا. وكل لغة تقوم بدورها على الوجه الأكمل إذا كان لكل من المستمع والمتكلم نفس المعرفة بهذه اللغة ونفس المعرفة بالوقائع التي يتحدثون عنها.

6) حدود التواصـــل :

رغم أن انتظام الجملة يخضع لقواعد لا ترتكز على أساس عقلي، فان اللغة تسمح بالتواصل وبتحقيق تواصل أحسن، واذا أريد اثبات هذا فلا يسعنا الا أن نستشهد بالدقة التي نجدها في نصوص القانون وفي النصوص العلمية. ما يؤمن تحقيق التواصل هو المعنى الاجمالي للجملة، ان بنيتها الداخلية لا تتعلق مباشرة بالفكرة المعبر عنها، ان هذا التمفصل ليس الا طريقة اقتصادية لكي نحصل على جمل مختلفة : كما أنه بعدد مختصر من **الصويتات** phonémes يمكننا أن نكون آلاف العلامات، كذلك فإننا بعدد محدود من العلامات يمكننا أن ننشيء عدداً غير محدود من الجمل المختلفة : ليس لكل علامة معنى، ولكن لكل جملة معنى، وهذا المعنى في علاقة وثيقة مع الفكرة.

لكي نفهم هذه العلاقة بين المعنى والفكرة، ينبغي الرجوع الى الابستمولوجيا. يجب التمييز بين المعرفة الفردية والمعرفة المشتركة بين أفراد من نفس المجموعة اللغوية : لا يمكننا أن نتواصل الا على أساس المعارف المشتركة، لأن فهمنا لانسان آخر، يعني اعدادنا في عقلنا أفكارا مشابهة لأفكار الفرد الذي يكلمنا، ولا يمكننا أن نقوم بهذا الاعداد الا اذا استخدمنا مواد موجودة في عقلنا، أي باستخدامنا لمعارفنا السابقة. ولنأخذ على سبيل المثال الجملة التالية : «ان أبي مريض»، ان من يتلفظ بهذه الجملة، يعرف بأن لأبيه مثلا خمسين عاما، وعينين زرقاوين، وشعرا أبيض، وبه نزلة رئوية، ولكن لفهم هذه الجملة فان المستمع ليس بحاجة الى معرفة مماثلة لمعرفة المتكلم، ولا ينبغي أن تظهر له الجملة المظهر الفيزيائي وطبيعة مرض الأب، ان الجملة لا تذكر له الا المعارف العامة التي يمكن لكل واحد منا أن يربطها بهاته الكلمات الثلاث «ان أبي مريض»، ان معرفة المتكلم الفردية عن أبيه وعن مرضه لا تكون دلالة الجملة «ان أبي مريض»، ان هذه الدلالة واقعة اجتماعية : أي ما هو مشترك بين المعارف الفردية لكل الأفراد الذين يستعملون في كل مرة هاته الكلمات الثلاث. وقد صيغت الجملة لكي تبلغ هذا، لا أكثر، وهي تبلغه كما ينبغي.

وقد توصلنا الى دليل آخر تجريبي للتمييز بين المعرفة الفردية والمعرفة المشتركة من خلال الأدب الروائي. عندما أقرأ رواية تفتقر لبعض الشخصيات، فانني أتصور الكائنات والأوضاع اعتمادا على تجاربي الشخصية لتصور الكائنات والأوضاع المماثلة، وأقدر ـــ اذا كنت فنانا ـــ أن أشخص هذه الرواية، أي أن أعطي شكلا عيانيا للكائنات والأوضاع كما لو كنت قد عرفتها واقعيا. لكن لو شَخَّصَ قارىء اخر نفس الرواية دون أن يعرف تشخيصي لها فانه سيتأثر بتجاربه الشخصية، وسيختلف تشخيصه لها عن تشخيصي. نرى اذن الفرق القائم بين الفكرة التي تجعلنا نتكلم وبين الدلالة المنقولة، ان مختلف الفنانين الذين شخصوا الرواية منفصلين، كلهم فهموا الدلالة تماما : ان التواصل واحد في كل الحالات، الا أن الأفكار المثارة عند الشخصين ليست واحدة وتختلف عن أفكار الكاتب.

إن ما يميز معرفة أي فرد عن معارف الآخرين يفلت من التبليغ وقد قال فر. بولهان : «لا أحد يفهم الآخر كما ينبغي»، ولا نعدم شعراء يشتكون من استحالة التعبير عما يشعرون به بعمق، وعما لديهم من أفكار أصيلة. ان الكلمات لا تذكر إلا المعارف المشتركة، وبفضل هذه المعارف المشتركة، نتوصل الى الايحاء ببعض الأفكار الشخصية في عقول السامعين، ولكننا لا نبلغ ذلك إلا عندما تكون لهذه الأفكار الشخصية قاعدة ترتكز عليها هذه التجارب الشخصية التي عاشها بدوره من يستمع الينا ومن يبحث عن التعبير عما يتعلق بتجاربه الشخصية الخاصَّة يعتقد بأنه يمكن أن ينجح في ذلك، ولكنه هو الذي يؤمن وحده بذلك، أما الآخرون فهم لا يفهمونه : لا يمكن أن يتحقق التواصل لأنه ليست هناك معرفة مشتركة. اننا لا نعبر عن أفكارنا إلا بقدر ما نبلغها.

ونجد كذلك في الرسم وفي الموسيقى هذا البحث عن الأصالة الذي يجعل تحقيق التواصل في خطر. عندما يقول لنا إنسان ما بأنه فهم لوحة أو قطعة مُوسيقية لم نستطع فهمها، فإننا نتردد في الحكم عليه : إما أن يكون ما قاله هذا الانسان صحيحا، وفي هاته الحالة فإن له تجربة مشتركة مع الفنان سمحت له بالفهم، واما أن يكون هذا الانسان لا يفهم شيئا أكثر منا، إلا أنه أراد أن يوهمنا بأنه ينتمي الى النخبة القليلة التي تمتلك معرفة نادرة. إننا نقبل قبليا بأن الفنان أراد أن يعبر عن شيء ما، ولكن من المستحيل علينا أن نحكم عما اذا كان قد نجح في ذلك.

وما يسميه علماء التربية بالثقافة العامة هي بكل تحديد المعارف المشتركة المنبثقة عن شكل من أشكال الحضارة، إننا نتشبث بهذه الثقافة العامة لأنها تسمح لكل الناس الذين يمتلكونها بأن يتفاهموا بسهولة في جميع الأحوال. أضف الى ذلك أن الحضارة تتوحد عبر العالم، ويصبح من السهل فهمها من بلد الى آخر، لكن سيكون دوماً لمجموعات من الأفراد معارف مشتركة ليست لدى المجموعات الأخرى، وهذه الاختلافات هي التي ستعوق دوما تحقيق التواصل. فليست الاختلافات في اللغة هي سبب الاختلافات في الفكر، بل العكس، اختلافات الفكر هي سبب الاختلافات في اللغة.

وبما أن أي لغة لا تقوم بوظيفتها إلا على أساس معارف مشتركة فهذا، احتمالا، السبب الرئيسي في القلق الذي يشعر به الناس دوما فيما يخص قيمة لغتهم.

ان الدلالة بسمتها الاجتماعية تفرض حدودا هامة لإمكانية التعبير عنها : إننا لا نعبر إلا عما نبلغه، إن اللغة لا يمكن أن تفلت من الاتفاق الاجتماعي لأنها وليدته، لكن بالنسبة للعلم فان هذا التحديد أمر تلقائي : إن العلم يبحث عن الحقيقة، أي عن اتفاق المعارف، والمعارف الفردية لا تهمه إلا اذا أمكن أن تصبح ملكا عاما، وأي وجد هذا الملك العام، فان الناس يجدون الوسيلة للتعبير عنه.

توجد مع ذلك حدود لامكانيات اللغات، حتى فيما يخص المعارف المشتركة. لقد قيل سابقا في الفقرة الثانية بأننا نفضل أحيانا لغة أكثر ملائمة. ان رسما ما هو على العموم الوسيلة الجيدة لإيصال المعرفة بأحد الأشكال. وهناك ملاحظة مماثلة يلزم الادلاء بها بخصوص الرموز الرياضية، إن بعض الصيغ المعقدة لا يمكن أن يعبر عنها بكلمات، ونتخلص من ذلك الاشكال بطريقة يمكن تمديدها لتشمل حتى الصيغ المترجمة. فمثلا يمكن أن تترجم المعادلة (أ ب = ج) بجملة مثل «قسمة عدد على ثان تعطي ثالثا»، إلا أن هذا لا يمكن أن يطبق عمليا : وعلى العموم نقول «أ على ب يساوي ج»، وهذه ليست ترجمة ولكنها وصف للرموز ولوضعها على الورقة. وهذه هي الطريقة التي يلزم أن نلجأ اليها عندما لا تترجم صيغة ما لغوياً.

من الصعب أن نثبت قبليا ــ أي قبل أن نحاول ــ بأنه سيكون من المستحيل على الناس أن يخترعوا الأساليب اللغوية للتعبير عن جميع المعارف المشتركة، ولنفترض أن هذا ممكن، فيجب أن نعترف بأن الناس تراجعوا أمام هذه الصعوبة وفضلوا في بعض الحالات الأساليب غير اللغوية. إلا أن هذه الأساليب لها نفس الأساس مع الأساليب اللغوية : إنها لا تفهم إلا في نطاق ما تستند اليه من معارف مشتركة ولا تعبر إلا عما تبلغه.

7) تأثيـر الفكـر :

على الصعيد التاريخي فان تأثير الفكر في اللغة معترف به منذ أمد بعيد.

فقد خلق عدد من الباحثين في الميدان العلمي كلمات جديدة كي يتحدثوا عما اكتشفوه أو اخترعوه : منذ نصف قرن، كان اللغويون يخلطون بين الصوت والصويت وكانوا لا يستعملون إلا كلمة صوت، واذا كانت كلمة صوت هاته تناسب الفكرة، فسيكون من المستحيل تميز الصوت من الصويت، لأنه لم تكن هناك إلا كلمة واحدة، لكن الدراسات قد قادت اللغويين الى إكتشاف أنه يلزم التمييز بين حدثين، وقد وجدوا كلمة **صويت** لكي يقيموا تميزا متعادلا داخل الكلمات. ان التغيرات الاجتماعية تؤدي الى تغيرات دلالية : فاعتناق المسيحية تمثل في اعتناق مدلولات جديدة، وقد أدت هذه المدلولات الجديدة الى العودة الى طرائق لسنية جديدة : فتارة تستعير كلمات من الإغريقية، وتارة تعطي معنى جديدا لكلمات قديمة، ولا تبقى محبوسة في إطار الاستعمال القديم. ان التجارة عرفتنا على منتوجات جديدة يلزم أن تسمى، بطاطس، طماطم، شكلاته، الخ، ولكل معرفة جديدة، يجد فكرنا طريقة جديدة لكي يتحدث عنها، وهذا يعني أن الفكر يغير الاستعمال اللغوي.

وليس من الضروري أن تكون المعرفة جديدة. ففي الانجلو ــ ساكسونية، كما في اللغة الألمانية اليوم ثلاثة صيغ نحوية للتذكير وللتأنيث[1] فالألمان يعلمون جيدا بأن كلمة Backfisch مذكر ولو أنها تدل على فتاة، وأن كلمة schildwache مؤنث ولو أنها تشير الى رجل، وأن Weib محايد ولو أنها تشير الى امرأة، ان علامة التذكير أو التأنيث لا تخدع أحدا : إن المرء يحترم هذا التقليد الذي لا يضايق أحدا. ولهذا التقليد مع ذلك أساس متين، ولو أن هذا الأساس لغوي محض : ان التمييز بين الصيغ النحوية يعتمد على ما يسمى بالمتعلق L'accord، ان كلمة Backfisch مذكر لأننا نقول der Backfisch وكذلك فان Schildwache مؤنث لأننا نقول die Schildwache، وان كلمة Weib محايد لأننا نقول das weib، وبدل أن نرجع الى متعلق الضمير، يمكن أن نرجع الى متعلق النعت الذي يسبق الاسم. وكذلك كان الأمر في الانجلو ــ ساكسونية ــ، إلا أن التصريفات التي خضع لها النعت والضمير اختفت، وهكذا اختفت امكانية الاتفاق، وكل ذلك أدى الى ضياع أساس التذكير والتأنيث النحوي، ومع ذلك فقد رأينا أنه حدث تنظيم جديد للأنواع : كل الأسماء الدالة على الذكور من الكائنات أصبحت مذكرة وكل الأسماء الدالة على المؤنث أصبحت مؤنثة، أما الأسماء الباقية فأصبحت محايدة. إن الاستعمال الجديد للأنواع قام على أساس معرفة الجنس. وهذه المعرفة لم تكن جديدة، ولكنها تمكنت من أن تفرض نفسها وذلك نظرا لضياع الأساس القديم للأنواع. لقد أظهر لنا هذا المثال الصراع بين اتجاهين : الصراع بين احترام التقليد وبين الرغبة في جعل اللغة في ارتباط مع الفكر.

ويمكن أن نعثر على هذا الصراع في بعض الأخطاء : وقد نشر هـ. فرى (نحو الأخطاء) Grammaire des Fautes (1929) الذي بين فيه أنه بجانب الأشخاص الذين يلتزمون بالاتباع الدقيق للتقليد، هناك أشخاص لهم ميل الى تغيير الاستعمال حتى يخضع لبعض الميولات النفسية. وقد أرجع «فرى» الأخطاء المفحوصة إلى الحاجة للتشبيه والتمييز، والايجاز، والثبات، والرغبة في التعبير. وغالبا ما حدث في الماضي ان تعدلت لغة ما بفعل تأثير مماثل.

وفي نفس السياق ينبغي ذكر مشكلة وحدة الجملة. ان كل حديث كيفما كان طوله ينقسم الى وحدات نسميها جملا (أو معادلات للجملة، حسب بنيتها). ويطبق عدة أشخاص نفس التقسيم بصورة رتيبة، إلا أن الذين يعتنون بلغتهم، الذين ينتبهون لعطائهم، يخضعون لمبدأ.

وقد حاولنا استخلاص هذا المبدأ، اذ كان يعتقد أحيانا بأنه يرتبط بمبدأ منطقي أو سيكولوجي : فعرفت الجملة كتعبير عن حكم. وقد تم تجاهل وقائع كثيرة، فبجانب الجمل التي تعبر عن حكم هناك جمل أخرى تعبر عن أشياء أخرى : تعبر عن سؤال، أو عن أمر، أو عن رغبة. وقد ادعى فريق آخر من النحاة بأن كل جملة تعبر عن معنى كامل، وهذا يصدق على الحكم والأمثال، لكن هناك عددا من الجمل لا تستجيب لهذا التحديد : لنفترض أننا وجدنا جزءا من رسالة يحمل فقط الكلمات التالية : «سأحدثه عن ذلك غدا»، ان هذه الجملة صحيحة لكن لكي نعرف ماذا تعني الكلمات (أنا، هـ، عن ذلك، غدا)، يجب أن نعرف بقية الرسالة. لا تقوم وحدة الجملة على أساس وحدة الفكرة المعبر عنها، ان أي جملة ليست إلا جزءا داخل حديث ما.

فكما أن مسيرة طويلة تقسم إلى مراحل لإراحة الماشي، كذلك فان حديثا طويلا يقسم الى جمل لتيسير الحوار بين متحاورين، وخصوصا بالنسبة للمستمع : تدبر وقفات لكي نعطي لمستمعنا الوقت لتأويل كلامنا. وهذا مثال نموذجي مستعار من جان جيونو Jean Giono ف(Pour saluer Melville).

«إن التقطيعات الداخلية الرهيبة تثير بصفة دائمة الناس ضد الالهة والصيد الذي يقومون به من أجل النصر الالهي لا يتم أبدا بأيد فارغة. مهما قيل عن ذلك».

إن النقطة الموجودة قبل (مهما قيل عن ذلك) تظهر رغبة جيونو في إيجاد وقفة، ومع أن كل نحوي سيقول بأن (مهما قيل عن ذلك) جملة تابعة وهي تشكل جزءا من الجملة التي سبقت النقطة. فان لجيونو سبباً ما جعله يحدث هذه القطيعة : إنه كان يريد أن يعطي الوقت للقارىء حتى يصوغ اعتراضه عليه، وكان يريد القول مع ذلك بأن أي اعتراض ليس صالحا. ان الفكر يحرف أحيانا الاستعمال اللغوي.

ولنفترض الآن أننا وضعنا عشرة أشخاص أمام لوحة واحدة وطلبنا منهم أن يعطونا عدد الجمل اللازمة لوصف المشهد المعروض، إن هؤلاء الأشخاص سيحرجون للاجابة قبليا، وعندما يصفون اللوحة فعلا فان عدد الجمل المستعملة سيختلف من شخص الى آخر. إن تقسيم حديث ما إلى جمل، عندما لا يكون هذا التقسيم بصورة رتيبة، يستجيب لخطة ترتكز أساسا على معرفة التأثير الذي نمارسه على المستمع عندما نتحدث. إن تقسيم أحاديثنا يتوقف على كل واحد منا، ويمكننا أن نسترسل في الحديث ببساطة بتقليد من هم أكبر منا سنا دون تفكير، ولكن لو أردنا ذلك فإن فكرنا ينظم هذا التقسيم كما سمعه. ان الكلام يخضع للغة.

8) تأثيـر اللغـــة :

قد يحدث أن بعض العبارات بإمكانها مغالطة الفكر. فلو قلت «ان لون الطوابع البريدية تغير» فيمكن أن يعتقد مستمعي بأن لون بعض الطوابع قد تغير بفعل تأثير الشمس أو بفعل مادة كيميائية، مع أني أريد القول بأن لون الطوابع الجديدة يختلف عن القديمة، إن الخطأ ممكن لأن العبارة تسمح بتأويلين، إلا أن مستمعي لا يضطرب إلا اذا جهل الوقائع التي أعرفها. وكذلك الأمر عندما نقول للأطفال بأن «الشمس تطلع»، إذ يعتقدون بأننا نصف حركة الشمس، ولكن عندما يعرفون الوقائع الفلكية، فإنهم يربطون معنى آخر بهذه الجملة. أخيراً يمكننا أن نستعيد هنا الجملة المشروحة في الفقرة الثالثة : «لكي تتكلم لغة أجنبية جيدا، فيلزم أن تفكر بهذه اللغة»، إن هذه الجملة لا يمكن أن تخطىء إلا من لا يعرف وقائع الازدواجية. وعلى العموم فإن الكلمات لا يمكن أن تغالط الفكر إلا اذا كانت مصدرنا الوحيد للمعرفة، إن كل مصدر آخر يسمح لنا بتحقيق الخبر اللغوي.

إلا أن من يؤكدون أن استعمال لغة ما يساعد على التقدم العقلي لا يخلمون فقط بهذا النوع من الوقائع. إنهم يخلمون أساسا بكون الانسان يتميز عن الحيوان بلغته المنطوقة وتقدمه العقلي في آن واحد، وقد تساءلوا عن العلاقة بين هاتين الخاصيتين.

عندما نتحدث عن اللغة المنطوقة، فإننا نشير إلى أن جملنا مركبة من عناصر لكل منها وظيفة داخل وحدات التواصل هاته. وقد رأينا بأن بنية الجملة هاته لا تتطابق مع بنية مماثلة وجدت عليها أفكارنا، توجد مع ذلك بعض الرموز التي تتطابق مع بعض الأفكار، ولكن ليس لكل رمز مطابقهُ العقلي، ومن ناحية أخرى فإننا لا نمتلك أية وسيلة لإثبات ما اذا كانت فكرة ما بسيطة أو معقدة، في حين أن الأمر بالنسبة للكلمات واضح، إن معنى أي كلمة معقد دوما، كما يكشف عن ذلك التعريف الذي يعطيه لها القاموس. من المسلَّم به أن الفكر ينظم أفكارنا وخلافا لهذا فان اللغة لا تنظم العلامات، إن اللغة لا تشرط الفكر.

وقد حاول البعض اثبات تأثير اللغة بدراسة الكائنات التي لا تتمتع بلغة. فقد عرفت حالة الأطفال الذين ربتهم الذئاب، إذ اعتقد هؤلاء بأنهم استطاعوا أن يخرجوا بنتيجة وهي أن الطفل اذا لم يتعلم الكلام قبل سنين معينة، فإنه سيفقد نهائيا بعض إمكانيات تطوره العقلي. إلا أن هذه النتيجة بعيدة عن الصحة : فقد وصف ك . دفيد في ((جريدة علم النفس الأمريكية)) حالة فتاة حجزت مع أم خرساء حتى السنة السادسة والنصف من عمرها، وقد بدت خرساء عندما اكتشفت، اذ لم تكن تخرج إلا صيحات غير منتظمة، إلا أنها في ظرف عامين استطاعت أن تتدارك كل تأخيرها. وهناك حالات أخرى من هذا النوع ستكون ضرورية حتى يمكننا استخلاص النتائج.

إن حالات الصم ــ البكم ليست قاطعة بهذا الصدد إذ يمكننا أن نعلمهم التواصل بغير الكلام وبعضهم، مثل هيلين كيلير، استطاع أن يحصل على تطور طبيعي. لم يكن بالإمكان قط دراسة أصم ــ أبكم لم يستطع أن يتواصل مع أي كان . إننا نبقى في حدود افتراضات.

عندما يتعلم الطفل الكلام، فيمكن أن نعتقد بأن الجهد الذي يقوم به لتقسيم جملنا هو التمرين الجيد، الذي يلزم لتطوير ملكاته، يلزمه أن يحلل الأوضاع المعقدة حتى يستخلص العناصر التي يرمز إليها كلامنا، فمثلا لو سمعنا نقول **البارحة**، فينبغي أن يقوم بمجهود شاق : يقارن بين مختلف الجمل التي سمع فيها هاته الكلمة وبين مختلف الأوضاع التي استعملت فيها هاته الجمل. إن القدرة على التحليل يلزم أن تتوفر لديه، ولا يمكن أن يكون الكلام إلا مناسبة لتمرين ذاته. ومن جهة أخرى، لو قبلنا بأن تحليل كلام الراشدين يطور فكر الطفل ويؤدي به إلى التساوي مع فكرهم، فإننا لا نقوم إلا بتحويل المشكل، لأنه ينبغي أن نتذكر بأنه يلزم الانسان يوما ما أن يخترع لغة يتكلم بها، وهذا الاختراع يتضمن الوجود القبلي لفكر قادر على خلق اللغة المنطوقة.

إذا لم نراع انتظام الجملة، واذا لم نهتم بالجملة بصفتها وحدة، فيمكننا أن نقوم بملاحظة هامة : لنأخذ حالة الانسان الذي يستخدم لغته، لا للتواصل، وإنما ليعبر عن أفكاره لنفسه، ولنفترض أنه أراد أن يعبر عن أفكار جديدة، أي أفكار لم يسمع قط التعبير عنها من قبل، أفكار توصل اليها باستدلال عقلي، إن كل من قام ببحث علمي وجد نفسه في مثل هذه الحالة عند صياغة نتائجه : يتعين علينا أن نجد طرائق تقليدية. إن المنهج معروف جدا : إنه بعمل لا شعوري نقوم بابراز جمل كما لو كنا نقوم بعملية تواصل، وتصبح هذه الجمل وقائع موضوعية باستطاعتنا معرفتها ودراستها كما لو كانت تتعلق بجمل منطوقة من طرف أفراد

آخرين، وبامكاننا أن نُثبتَ ما اذا كان معنى هذه الجمل يتطابق جيدا مع افكارنا، واذا لم تعجبنا تلك الجمل، فاننا سننتج جملا أخرى. وتستمر عملية البحث هذه حتى نشعر بأن الصيغة المستعملة تتطابق تماما مع الفكرة المراد التعبير عنها. وابتداء من اللحظة التي نتوفر فيها على جمل مختلفة مقبولة، فإننا قادرون على المقارنة بينها، ونثبت ما اذا كانت متماسكة، واذا اقتضى الأمر فاننا نوفق بينها ونبرز ما هو مشترك بينها، وهكذا سنرتقي درجات في التجريد. ان الكلام يظهر كوسيلة لتثبيت الأفكار، ولحفظها في شعورنا في نفس الوقت. ولو أن اللغة لا تسمح إلا بهذا، فإنها مع ذلك مساعد ذو أهمية كبرى لفكرنا.

إن الجمل التي اعتمدنا عليها لموضعة أفكارنا، ولدراستها، يمكن أن ننطق بها ذهنيا، أو بصوت مرتفع أو تكون مكتوبة، ان هذه الاختلافات لا أهمية لها بتاتا، لكن من الأفيد أن نعيد هنا بأن الالتجاء الى اللغة الداخلية لا يتطابق مع ممارسة التفكير. ان اللغة الداخلية هذه عادة ما ترافق لا إراديا ممارسة تفكرنا، وكذلك الأمر بالنسبة للحركات التي يقوم بها «اللاترابيون» حتى يتواصلوا بصمت انها حركة عادية لأنه ليس بنادر أن نرى (لا ترابيا) يقوم بحركاته مع أنه وحيد، وهذا كأي إنسان آخر يتحدث إلى نفسه، إن هذه الحركات تثبت أنه يفكر، لكن لا يخطر ببال أحد أن يطابق بين الالتجاء الى الحركات والفكر.

ونميز كذلك بين العدد واسم العدد. إن مدلول العدد يوجد لدى الحيوانات، لكنها لا تمتلك ترقيما، إنها لا تميز إلا الأعداد الأولى. وبالعكس، فان الانسان يستطيع أن يشعوذ بالأعداد لأنه أعطاها أسماء. أن تعد يعني أن تستظهر الأعداد في ترتيب وأن تكون جدول الضرب محفوظة عن ظهر قلب. وبفضل هذه القدرة اللفظية Verbalisme يكون الجبر ممكنا، ويكون العلم دقيقاً.

وفي النهاية نؤكد بأن وجود اللغة الباطنية يفترض الوجود المسبق للغة اجتماعية : فبتقليدنا للحوار الاجتماعي بواسطة مناجاتنا لذاتنا يمكن أن نغني حصيلتنا العقلية. إن الكلام لا يصبح مساعدا للفكر إلا بعد أن يكون أداة للتواصل، وهذا يعني أنه يتعين الاحساس بالحدود التي يفرضها التواصل في اللحظة التي يستخدم فيها الفكر اللغة الداخلية.

9) خاتـــمة :

ان الوقائع التي عولجت هنا تسمح لنا بأن نحدد بالتأكيد علاقات بين الفكر والأفكار من جهة وبين اللغة والكلام من جهة أخرى.

إن لوحدة الكلام، أي الجملة، بنيتها الداخلية التي لا تتقيد بالفكر، ولو أخذنا الجملة بصورة اجمالية، فسنجد أنها تستجيب لمعظم الاحتياجات التواصلية، وقد ملئت الفجوات بأساليب تواصلية أخرى. كل أسلوب تواصلي، كان لغويا أم لا، فانه نتيجة اتفاق اجتماعي : إنه قائم على أساس اتفاق المعارف، أي على الحقيقة، وهو لا يعبر إلا من حيث إنه يحقق التبليغ. إن الفكر وجد قبل اللغة، وميدان أفكارنا أوسع بكثير من ميدان كلماتنا، ويمكن أن نمارس التفكير بدون الاعتماد على الكلمات، ولو أن التفكير يترافق مع كلمات، فان عمله

ليس مشروطا بالكلمات المستعملة. ان الفكر يستخدم الكلام لموضعة الأفكار، ولتنظيمها ولتجريدها. وأخيرا فان الفكر يمكن أن يؤثر في تطور اللغة.

ان اللغة لا تؤثر في الفكر إلا استثنائيا، وطبيعيا فان اللغة في خدمة الفكر الذي ينظمها ويستخدمها : واللغة لم توجد لهذا فقط، انها وسيلة للتأثير في الغير. ان الانسان المتكلم L'homo Loquens ليس إلا مظهرا خاصا للانسان الصانع L'homo Faber.

ترجمة : حميش محمد توفيق

هوامش :

1) Trapiste الاترابي : أحد رهبان دير لاتراب الممتنعين عن الكلام (المنهل)

2) رعادة Torpille : جنس أسماك بحرية مكهربة إذا مسها الانسان خدرت يداه حتى يرتعد ما دام السمك حيا. (المنهل).